قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم : أحمد بهجت   ريشة : مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص .ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم : أحمد بهجت   ريشة : مصطفى حسين

دار الشروق

بدأت الحياةُ الإنسانيةُ بِهبُوطِ آدمَ وحـــواّءَ إلــى الأرضِ ،
كـانت حـوّاءُ تلدُ في البـطنِ الـواحـدِ تـوأمينِ ذكـراً وأُنثى . . فـإذا مـر عَـامٌ ولدتْ في البطنِ الثاني ولداً وبنتاً . .

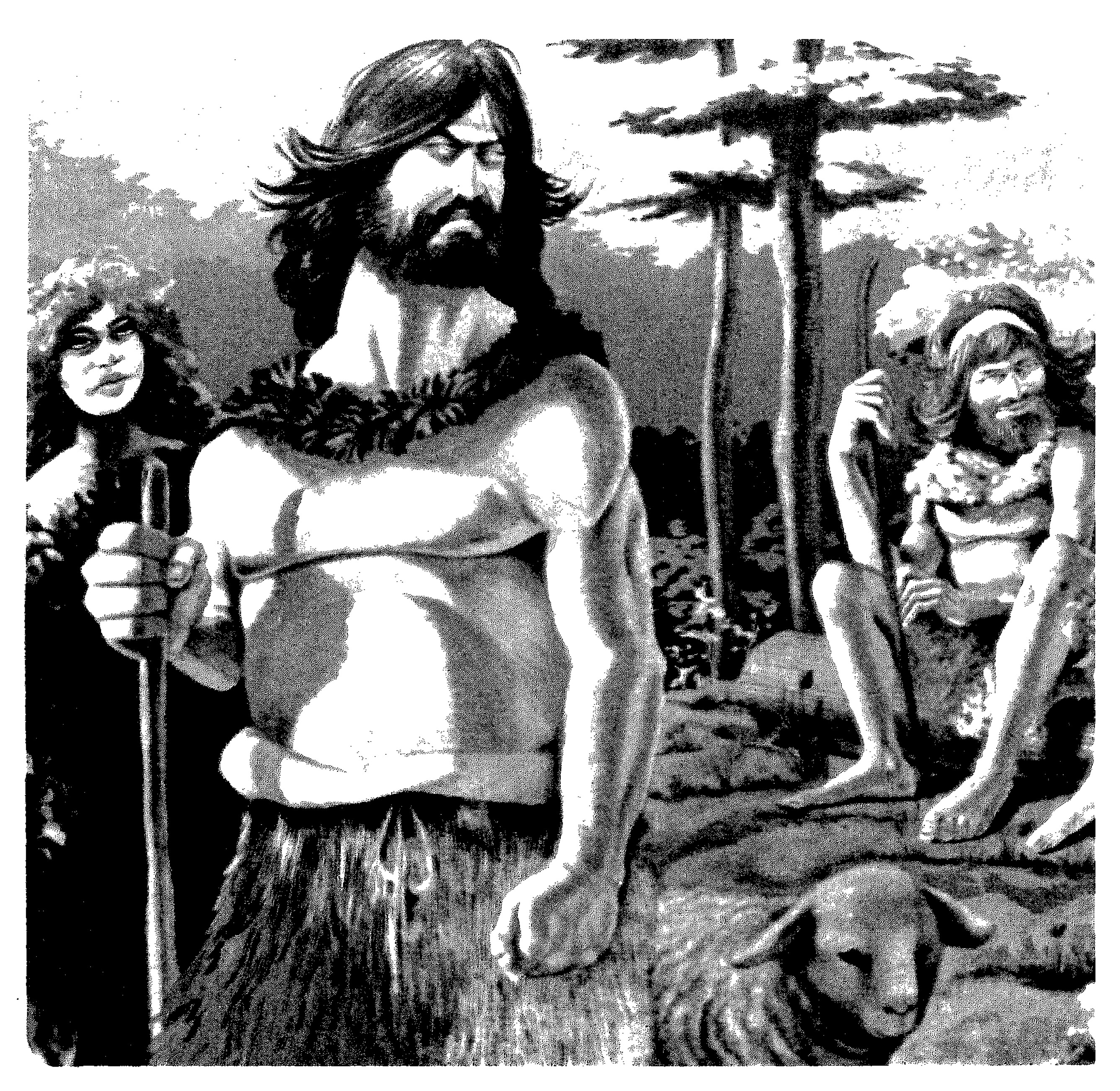
ولم يكنْ يَحِـلُّ للولدِ أن يتـزوّجَ من شَقيقتِـه التي وُلِـدتْ معـه في نفسِ البـطنِ ، إنما كـان يَستطيعُ الزّواجَ من ابنةِ البطنِ الثانيةِ ، باعدَ الله بينهُما كما باعدَ بين الأقاربِ . .

في ذلك الزمـانِ البعيدِ ، حين كـان بالوُجـودِ آثنانِ من أبنـاءِ آدمَ . . وقعتْ هذه القصةُ لهما . .

تَـزوجَ الولـدُ الذي وُلِـدَ في البـطنِ الأولِ بـالبنتِ التي وُلِـدَت في البـطنِ الثاني . . وتَزوجَ الـولدُ الـذي وُلِدَ في البـطنِ الثـاني بـالبِنتِ التي وُلِـدَت في البطنِ الأولِ . .

وكـان أَحدُ الأخـوينِ غيرَ راضٍ عن زَواجِـهِ حيث كـان يـرىٰ زوجـةَ الآخرِ أَجملَ من زوجتِه .





وبدأَ هذا الأخُ يَحِسُّ بالكَراهِيـةِ نحو أَخيهِ .

كـان آسم هذا الأخ قـابيـلَ . . أما الأخ الثاني فكانَ آسمهُ هابيلَ . .

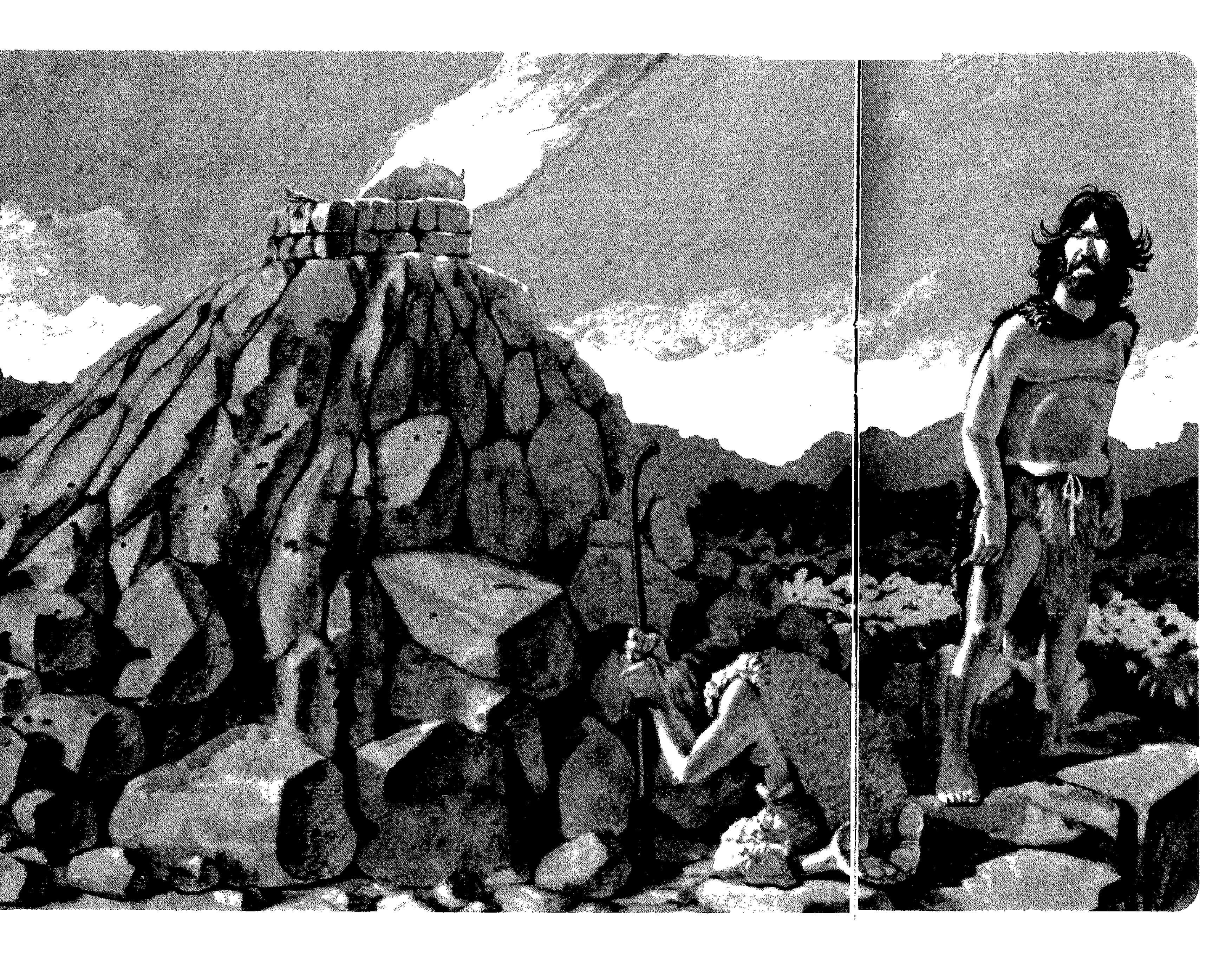
كـان قـابيــلُ قـويَّ الجسـدِ حـادَّ المَـلامِحِ ، ولم يكنْ راضيـاً عن حظِّه في الزَّواجِ ، وبالتالي فقد كـان يَحسِدُ شَقيقَه هابيـلَ . . وبقدرِ مـا كان قـابيلُ عَنيفاً وصارِماً كان هابيلُ وَديعاً وَلطيفاً ، وكـانتِ المشاعـرُ الداخليـةُ التي تملأُ قلبَ كـلٍّ واحـدٍ منهمـا تَنعكِسُ على وجهِه وتَظهرُ على ملامِحِه . .

وذات يومٍ أَمر آدمُ ولـديهِ أن يُقـدِّما قُرباناً لله . .

سأَلاهُ : ماذا يعني بالقُربانِ ؟

قـال آدمُ : القُـربـانُ هـديـةُ شُكـرٍ إلى الله . . إذا تقبَّلَهـا الله سُبحـانَـه وتعـالىَ ، فسوفَ تَنـزِلُ من السماءِ نـارٌ تَلتهِمُهـا . . وسيكـونُ هـذا إيـذانـاً بِقُبـولِ الله لهـا . . آنصـرفَ الأخـوانِ وجاءَ عيدُ الشُّكرِ . .

كـان قـابيـلُ غَنياً ولكنَّـه لم يكنْ كَـريماً . . وراحَ يُفكِّـرُ مـاذا يُقـدِّمُ للسماءِ . . وخشِيَ على كِباشِه وعُجوله وقـرَّر أن يُقـدِّمُ بعضَ أعـوادِ القمحِ الضَّعيفةِ التي قدَّرَ بينه وبين نفسِه أنها لا تَصلُح لِصناعةِ الخُبزِ . . كان سَيـرميها عـلى أَي حـالٍ . . لـم يـكـن لِيستَخدِمَها . . هكذا فكَّر قابيلُ .



أَما هابيلُ فكان رغمَ فَقرِه كَريماً . . حيثُ قـرَّر أن يُقدِّم لِلقُـربـانِ أَسمنَ الكِباشِ .

وتوجَّهَ قابيلُ وهابيلُ إلى الجبلِ . . صَعِدا جُزءاً منه ووضعَ كلُّ واحدٍ منهما قُربانَه . .

وضعَ هابيلُ كِبشَهُ السَّمينَ . .

ووضـعَ قـابيـلُ حفنـةً من أَعـوادِ القمحِ . .

وآنحـدرا من الجبـلِ وَوقفـا عنـد سَفحِه يَنتظِرانِ . .

هبطتْ من السماءِ نـارٌ أَكلتْ قُربـانَ هابيلَ . . وظلَّ قُربانُ قابيلَ على حالـهِ لم يمسَسْه شيءٌ .

آنحنى هابيلُ يَسجُد لله . .

ووقفَ قابيلُ يُحـدِّقُ في هابيـلَ . .

ومن أَعماقِ رُوحِه تَصاعدتْ مَوجةٌ من الغضبِ والكَراهِيةِ . .

وأَدركَ قابيلُ أنَ الله يُحبُّ أَخاهُ أَكثرَ مما يُحبُّه . . أَدركَ أن الله قد تَقبَّلَ من أَخيهِ ولم يَتقبلْ منه ، وبَدلاً من التَّوبةِ المُطهِّرةِ وإِصلاحِ الذاتِ ، آحترقَ قلبُ قابيلَ بِكراهيةٍ عَميقةٍ نحو أَخيهِ . . وَوسوسَ إليه الشيطانُ أن يَقتُلَه . . كانتْ نَظراتُه على البُعدِ تَكشِفُ قاعَ رُوحِه التي تَموجُ بأَفكارِ الشرِّ والجَريمةِ .

آنفردَ قابيلُ بشَقيقِه وسأَلَه : لماذا تَقبَّلتِ السماءُ قُربانَك ولم تتقبَّلْ هَدِيّتي . . قال هابيلُ : لا أعرفُ لماذا حدثَ ذلك ، ولكنِّي أَعتقدُ أن قلبكَ ليس صافياً لله ، لو صَفا قلبُكَ لله لَتقبَّلَ الله عَملكَ وقُربانَك . .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

قال هابيلُ : لا تَغضبْ يا قابيلُ ، ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المُتَّقينَ ﴾ . . لو نَدمْتَ الآن وعُدتَ إلى الله فسوف يَتقبَّلُ منك .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقتُلَنَّك ﴾ .



قال هابيلُ : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ . . إِنِّي أَخَافُ آللهَ رَبَّ آلْعَالَمِينَ ﴾ .

قابيلُ (ثائراً) : سأَقتُلُك ذات يومٍ . . ثق أنني فاعلٌ .

هابيلُ : لن أُقاوِمَك لو حاولتَ قتلي ، ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ آلنَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ آلظَّالِمِينَ ﴾ .

آنصرفَ قابيلُ ثائِراً ومضَى يُفكِّر . .

أَحسَّ أنه في حاجةٍ إلى أن يسيرَ

طَويلاً حتى يُهدِّئَ من نفسهِ الثائرةِ . .
كان الشيطانُ يُفكِّرُ معه ويَسيرُ جِوارَه أو يَنبُضُ في دمائِه ويُوسوِسُ إليه ويُزيِّنُ لـه فِكرةَ القتلِ . .

قـال قابيـلُ لنفسـهِ : لقـد آن الأوانُ لإزاحتِـه من طـريقي . . إن التَّخلُّصَ منه سوف يُكسِبُني أرضَه وزوجتَه . .

ومضى قـابيلُ يسيـرُ حتى آنتهى إلى شجرةٍ يرقُدُ جِوارَها حِمارٌ ميتٌ . . كان الحِمارُ قد مات منذ قليـلٍ . . وهبطتِ الـطيورُ الجـارِحةُ عليـه من كـلِّ آتجـاهٍ ومضتْ تَلتهِمُ لَحمَه . .

بعـد ساعـاتٍ قليلةٍ كان الحمـارُ قد تحـولَ إلى هيكـلٍ عـظميٍّ . . ووقفَ قابيلُ يرقُبُ المشهدَ . .

إن الصـراعَ يَجـري في كـلِّ مكـانٍ على الأرضِ ، فلمـاذا لا يَنقضُّ على شَقيقِه كما تَنقضُّ هذه الطيورُ الجارِحـةُ على المـأدُبـةِ التي هـيّـأهـا مـوتُ الحمارِ . . .

آقتـربَ قـابيـلُ أكثـرَ من الحمـارِ فَـطارتِ الطيـورُ مُبتعدةً عنـه . . تأمَّـلَ قابيلُ الحمارَ . . .

تأمَّلَ فكَّـه . . ألا يصلُح هذا الفكُّ سلاحاً يَتخلَّصُ بـه من أخيه ؟ مـد يدَهُ وآنتـزعَ فـكَّ الحمـارِ من الهيكـلِ العظميِّ وحملَه ومضَى به .

قـال لنفسِـه : من يَـدري . . قـد يُخلِّصُني هذا الفكُّ من أخي !

فكَّر قابيلُ طَويلاً في جَريمتِه قبل أن يَرتكِبَهَا . . كـان يعلمُ أن شقيقَه هـابيلَ يحبُّ الطبيعةَ ، وكثيراً ما ينامُ في كهفٍ صخريٍّ تُطِلُّ فَتحتُهُ على الحَدائق .

قـال لنفسِه : سـوف تَحينُ فُـرصتي

حين يدخلُ الكهفَ وينامَ . .

وجاءَ يومُ الجريمةِ . . ودخلَ هابيلُ إلى الكهفِ ونامَ فيه كعادتِه . . كان هابيلُ مُرهَقاً لم ينمِ الليلَةَ السابقةَ كُلَّها ، سهِرَ فِيها إلى جوارِ زوجتِه التي كانت تتألَّمُ وتَتهيَّأُ لميلادِ طِفلِها الأول ، وفي الصّباحِ المُبكرِ صحبَ زوجتَه وذهبَ بها إلى أُمِّهما حواءُ ، لكي تلدَ عندها . . ثم ولدتْ ذكراً وبِنتاً جميلينِ فيهما صفاءُ هابيلَ . .

آستراحَ هابيلُ أخيراً وجاءَ إلى كهفِه الأثيرِ ، وسُرعانَ ما آستغرقَ في النومِ . .

آنتظرَ قابيلُ حتى تأكدَ أن شقيقَه نامَ ، ثم تسلّلَ إلى الكهفِ وهو يُشدِّدُ قَبضَتَه على فكّ الحمارِ . .

كان ذهنُه يَموجُ بتيّارٍ من الشرِّ الذي يَهُزُّه هزّاً رغم صلابتِه . . وكان الشيطانُ قد أَقنعَه بفكرةِ القتلِ وسوَّلَها له حتى آنطبعتْ في قلبِه . .

وآقتربَ الشرُّ المسلَّحُ من الخيرِ النائمِ ، آستغلَّ الشرُّ فرصةَ نومِ الخيرِ ورفعَ يَده وهوَى بها على شقيقِه . . .

وتدفَّقَ دمُ الشقيقِ يَجري على الأرضِ . .

ماتَ هابيلُ . .

سكنتْ حركتُه وآستسلَمَ للموتِ . . أَحسّ قابيلُ بالفزعِ حين هَمدتْ حركةُ أَخيهِ تماماً وآستلقَى على ظهره ودمُه ينزفُ . . توقَّفَ قابيلُ عن ضربِ أخيهِ وهزهُ فوجدَه لا يَتحركُ . . آمتلأ قلبُه بخوفٍ باردٍ ولم يعرفْ ماذا يفعلُ . . ناداهُ فلم يُجبْه . . وحدَّثه فلم يَلتفِتْ إليه . . وأَدركَ قابيلُ أنه قتلَ شقيقَه . .

كـان هابيـلُ أولَ إنسانٍ يمـوتُ على سـطحِ الأرضِ ، وكـان مـوتُـه أولَ جـريمـةِ قتـلٍ تقـعُ في الـوُجـودِ الإنسانيِّ . . لَم يكن قد ماتَ قبلَ ذلك من البشرِ أَحدٌ . .

وحارَ قابيلُ ماذا يفعلُ بجسدِ شَقيقِه الذي سكنتْ حركتُه ، وحارَ قـابيلُ أين يُخبِّئُهُ ويُخفي جَريمتَه . .

وهكـذا حملَ قـابيـلُ جسـدَ شقيقِهِ الميِّت هـابيلَ ومضى يَسيـرُ به . . أَرادَ أَن يُخبِّئَهُ في مكانٍ بعيـدٍ حتى لا يصلَ إليـه أحـدٌ . . لم يجـدْ مكـانـاً يصلُح لذلكَ . .

ظـلَّ يسيـرُ حتى تعِبَ ، ثم مـزّقَ الهـواءُ صوتَ طـائرٍ يصـرُخُ ، أَفـزعتْـهُ الـصـرخـةُ ومـلأتْ نفسَـه بِشُؤْمٍ مجهولٍ . .

آلتفتَ القاتلُ فرأى في السماءِ غُراباً يـطيرُ وهـو يُمسِـكُ بِمنقـارِه شيئـاً لم يتبيَّنْه .

وزادتْ حِيرتُـه وآشتـدَّ إحساسُـه بـالفزعِ . . وأَحسّ بِثقـلِ أَخيه كـأنـه يحملُ جبلاً ضخماً .

وقف قـابيـلُ ووضـعَ شقيقَـه على الأرضِ وهـو لا يعـرف مـاذا يفعـلُ أو كيف يتصرَّفُ . .

كـان حائـراً تَمـوجُ نفسُـه بِمشـاعِـرَ مُـختـلِطَةٍ مـن الـخـوفِ والـرُّعـبِ والقلقِ . .

ثم آقتربَ الغُرابُ فرآهُ قابيـلُ يحمِلُ غُـرابـاً ميِّتـاً . . وضـعَ الغُـرابُ الحيُّ شقيقَـه الميتَ على الأرضِ وسـاوَى أَجنحتَـه وحفـر لـه حُفـرةً بِمنقـارِه وأَقـدامِه ، حتى إذا صنـعَ لأخيهِ لحدَه

وقَبرهُ ، رفعهُ بِمنقـارِه وَوضعهُ بـرفقٍ في قبره . ثم صرخَ صَرختينِ قَصيرتينِ كأنه يَبكيه وعادَ يهيلُ عليه الترابَ . . بعدها طارَ في الجوّ وهو يَصرخُ . .

وأدركَ قـابيـلُ أن الله بعثَ إليـــه من يُعلِّمُه دَرسينِ معاً في وقتٍ واحدٍ . .

أما أَحدُ الـدَّرسينِ فقد عَـرفَه قـابيلُ على الفورِ . .

أما الدرسُ الثـاني فقد عَـرفَه قـابيلُ بعد ذلك بزمنٍ . .

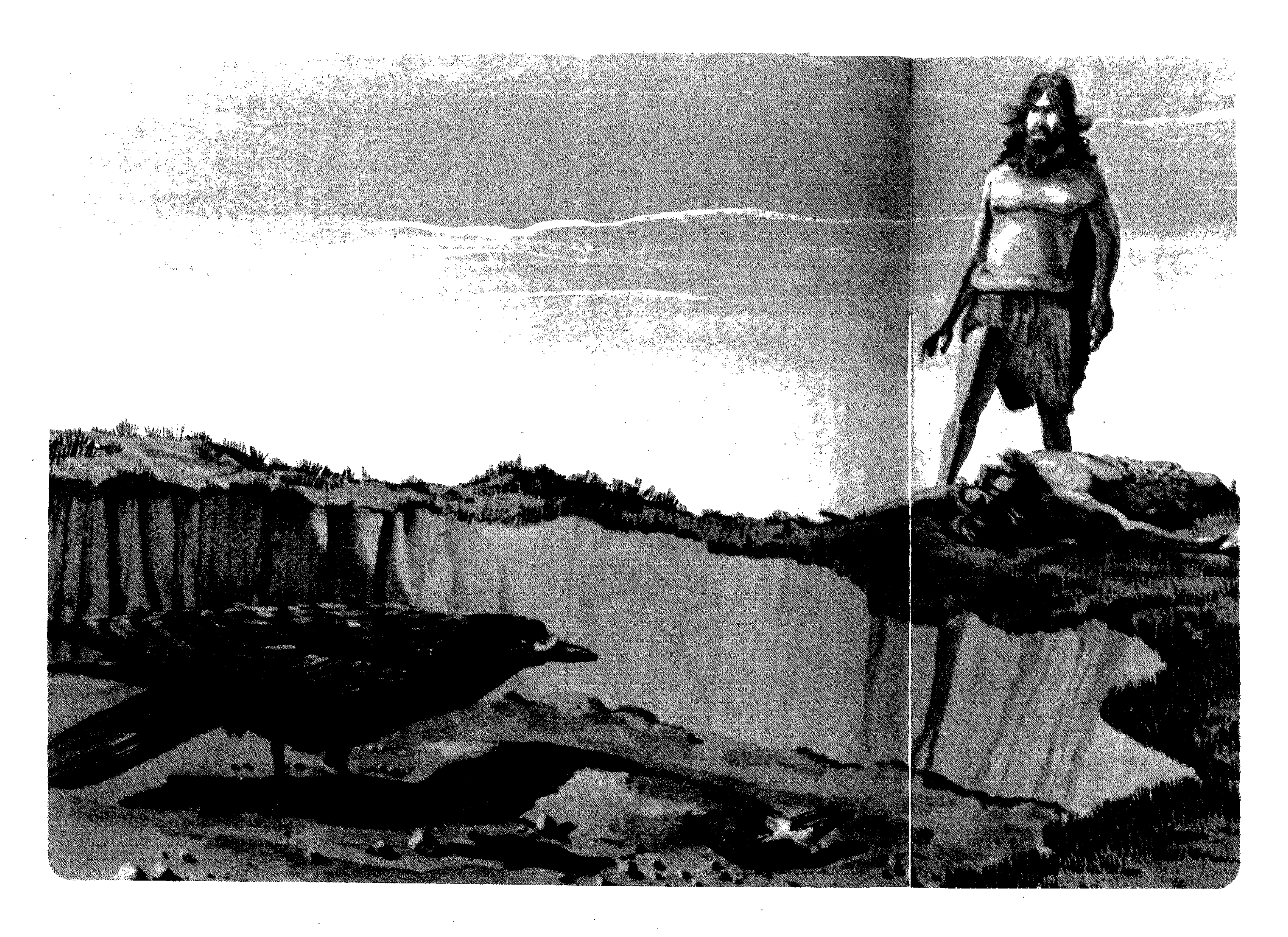
لقد عجزَ قابيلُ وحـدهُ عن دفنِ أخيهِ رغم أنه قتلهُ ، ولولا الغُـرابُ ما عـرفَ كيف يُواري جسَدَهُ الهامد . .

قـال لنفسـهِ : لم أعـرفْ كيف أَدفُنُ أَخي ودفنَ الغُرابُ أَخاهُ . .

كـان هذا هـو الـدَّرسُ الأولُ الـذي تَعلَّمه قابيلُ . .

عَرفَ أنه كان أَقلَّ في ميزانِ الرحمـةِ من الغُــرابِ . . والأصــلُ أنــه سيــدُ الكائناتِ .

ونهضَ قـابيـلُ وحفـرَ حُفرةً لأخيـهِ ودَفنهُ فيها ، ثم تـذكَّر صُـراخَ الغُـرابِ



الحيِّ على الغُرابِ الميِّتِ فمزَّقَهُ النَّدمُ على جَريمتِه فأَصبحَ من النادِمينَ .

قال وهو يَنهـارُ على الأرضِ : ﴿ يَا وَيْلَتَـا أَعَجِزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْلَ هَـذا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخي ﴾ !

انصَرفَ قَابيـلُ مُمتَقِعَ الـوجهِ مُتـرَعَ القلبِ بالنَّدمِ والهُمومِ .

وجـاءَ المساءُ ولم يعُـدْ هـابيـلُ . .

ومـرَّتِ الأمسِياتُ واللّيـالي ولم يعُدْ هابيلُ . .

سأَل آدمُ قابيلَ : أَين ذهبَ هابيلُ ؟

قابيلُ : لست أَعـرفُ أَين ذهب . .

وقـرأ آدمُ في عينيِّ آبنـهِ خَـطيئَتَـه . . وسأَلَه :

ــ قـابيلُ . . مـاذا فعلتَ بـأَخيـكَ هـابيلَ ؟ إن الله لم يَتقبـلْ قُربـانَك . . ماذا فعلتَ بأَخيكَ ؟

وتذكَّر قابيلُ قُـربانَـه الذي تَجـاوزتْهُ السماءُ . . تذكَّر كلِماتِ هابيلَ له . .

لقد أَشارَ يـومئذٍ إلى النَّـدمِ . . حثَّه عـلى النـدمِ حـين رفـضتِ السمـاءُ قُربانَه . .

لو أَنه عرفَ ندمَ التَّوبةِ الجميلِ على الـذُّنـوبِ لمـا أَهلكَـه نـدمُ الخَـطيئـةِ الفاجعِ . .

وكـانَ هذا هـو الدرسُ الثـاني الذي تعلّمهُ قابيلُ . .

آنتهى الأمـرُ ولم تعدْ لهـذا الدرسِ قيمةٌ . . صار قابيلُ قاتلاً . .

آنتهى الأمـرُ وفقـدَ طُمـأْنينـةَ نفسِـه وتَمـزَّق سـلامُـه الـدَّاخليُّ وأَصبـحَ من النادمين . . صارَ الندمُ هوخُبْزَهُ اليوميّ المُـر الذي قـدرَ عليـه أن يـأْكُلَه طِـوالَ حياتِه . .



خسِرَ قابيـلُ نفسَه بِسببِ جَـريمتِهِ ، وأَدركَ أن كـلَّ مَكاسِبِه من جـريمَتِـه لا تُسـاوي خِسارةَ نفسِـه . . أَدركَ أنه من أَهــلِ النـارِ . . وأَدركَ أن شقيقَــه من أَهـلِ الـنعيـمِ . . وزادَ إحـسـاسُـه بالمَرارةِ . .

وعرفَ آدمُ بما حـدثَ . . وزادَ ندمُ قابيلَ . .

في نفسِ الـوقتِ . . كـان أَبنـاءُ الشَّهيدِ هابيلَ يَكبُرونَ في السِّنّ . .

وكـان هذا إشـارةً إلى أَن الدُّنيـا مـا زالتْ تنجبُ الخيرَ وإن ملأَها الشرُّ . .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝
لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ
أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ
فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ
نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا
يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝

صدق الله العظيم